نص كلمه شيخ الازهر التى ستذاع فى طابور الصباح اول ايام الدراسة بالفصل الدراسى الثانى

بسم الله الرحمن الرحيم

أخى وصديقى العزيز/ قداسة البابا فرنسيس – بابا الكنيسة الكاثوليكية

الأخ العزيز سمو الشيخ/ محمد بن زايد وأخيه سمو الشيخ محمد بن راشد، وإخوته قادة دولة الإمارات العربية المتحدة

السَّلَامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه.. وبعد

فأبدأُ كلمتى بتوجيه الشكر الجزيل لدولة الإمارات العربية المتحدة: قيادةً وشعبًا، لاستضافة هذا الحدث التاريخى، الذى يجمع قادة الأديان، وعُلماءها ورجال الكنائس، ورجال السياسة والفِكْر والأدب والإعلام.. هذه الكوكبة العالمية التى تجتمع اليوم على أرض "أبوظبى" الطيّبة، ليشهدوا مع العالم كله إطلاق «وثيقة الأخوة الإنسانية»، وما تتضمنه من دعوة لنشر ثقافة السلام واحترام الغير وتحقيق الرفاهية للبشريَّةِ جمعاء، بديلًا من ثقافة الكراهية والظلم والعُنف والدِّماء، ولتطالب قادة العالَم وصُنَّاع السياسات، ومَن بأيديهم مصائر الشعوب وموازين القُوى العسكريَّة والاقتصادية – تطالبهم بالتدخل الفورى لوقف نزيف الدِّماء، وإزهاق الأرواح البريئة، ووضع نهايةٍ فورية لما تشهده من صراعات وفِتَن وحروب عبثيَّة أوشكت أن تعود بنا إلى تراجع حضارى بائس ينذر باندلاع حرب عالمية ثالثة.

.....

الحفـلُ الكـريم!

إننى أنتمى إلى جيل يُمكن أن يُسمَّى بجيل الحروب، بكل ما تحمله هذه الكلمة من خوف ورُعب ومُعاناة، فلازلت أذكُر حديث النَّاس –عقب الحرب العالميَّة الثانية- عن أهوال الحرب وما خلَّفته من دمار وخراب، وما كدت أبلغ العاشرة من عُمرى حتى دهمتنا حرب العدوان الثلاثى فى أكتوبر ١٩٥٦م، ورأيت بعينى قصف الطائرات لمطار مدينتى مدينة الأقصر، وكيف عِشنا ليالى فى ظلامٍ دامس لا يغمض لنا فيها جفن حتى الصباح، وكيف كنا نُهرع إلى المغارات لنحتمى بها فى جنح الظلام، ولاتزال الذاكرة تختزن من هذه الذكريات الأليمة ما يعيدها جَذَعًا كأن لم يَمُرّ عليها أكثر من ستين عامًا.. ولم يمض على هذه الحرب سنوات عشر حتى اندلعت حرب ١٩٦٧م، وكانت أشد وأقسى من سابقتها، عِشناها بكل مآسيها، وعشنا بعدها ست سنوات فيما يُسمَّى باقتصادِ الحروب، ولم نتنفَّس الصعداء إلَّا مع انتصار ٧٣ فى حرب التحرير التى أعادت للعرب جميعًا كرامتهم، وبعثت فيهم مكامن العِزَّة والإباء، والقُدرة على دحر الظلم وأهله، وكسر شوكة العدوان والمعتدين.. وظننا وقتها أننا ودعنا عهد الحروب، وبدأنا عصر السَّلام والأمان والإنتاج.

لكن الأمر سُرعان ما تبدَّل بعد ذلك حين واجهتنا موجة جديدة من حرب خبيثة تُسمَّى «الإرهاب» بدأت فى التسعينات، ثم استفحل أمرها بعد ذلك حتى أصبحت اليوم تقض مضاجع العالَم شرقًا وغربًا.

وكان الأمل أن تطُل علينا الألفية الثالثة، وقد انحسرت موجات العنف والإرهاب وقتلِ الأبرياء من الرجال والنساء والأطفال، ولكن خاب الأمل مرة ثالثة حين دهمتنا حادثة تفجير برجى التجارة فى نيويورك فى الحادى عشر من سبتمبر من مطلع القرن الحادى والعشرين، والتى دفع الإسلام والمسلمون ثمنها غاليًا، وأُخذ فيها مليار ونصف المليار مسلم بجريرة أفراد لا يزيد عددهم على عدد أصابع اليدين، فقد استغلَّت هذه الحادثة استغلالًا سلبيًا فى إغراء «الإعلام» الدولى بإظهار الإسلام فى صورة الدين المتعطش لسفك الدِّماء، وتصوير المسلمين فى صورة برابرة متوحشين اصبحوا خطرًا داهمًا على الحضارات والمجتمعات المتحضرة، وقد نجح هذا الإعلام فى بعث مشاعر الكراهية والخوف فى نفوس الغربيين من الإسلام والمسلمين، وسيطرت عليهم حالة من الرُّعب ليس من الإرهابيين فقط، بل من كل ما هو إسلامى جُملةً وتفصيلًا.

السَّـيِّداتُ والسَّـادَة!

إنَّ «وثيقةَ الأُخوَّة» التى نحتفل بإطلاقها اليوم من هذه الأرض الطَّيِّبة وُلِدَت على مائدة كريمة كنت فيها ضيفًا على أخى وصديقى العزيز فرنسيس بمنزله العامر، حين أُلقى بها أحد الشَّباب الحاضرين على هذه المائدة المباركة، ولَقِيَتْ ترحيبًا واستحسانًا كريمًا من قداسته، ودَعمًا وتأييدًا مِنِّى، وذلك بعد حوارات عِدَّة تأمَّلنا فيها أوضاع العالَم وأحواله، ومآسى القتلى والفقراء والبؤساء والأرامل واليتامى والمظلومين والخائفين، والفارِّين من ديارهم وأوطانهم وأهليهم، وما الذى يُمكن أن تُقدِّمه الأديان الإلهيَّة كطوق نجاة لهؤلاء التعساء، وما ادهشنى هو أن هموم قداسته وهمومى كانت مُتطابقة أشد التطابق وأتمه وأكمله، وأن كل منّا استشعر حرمة المسؤولية التى سيحاسبنا الله عليها فى الدَّار الآخرة، وكان صديقى العزيز رحيمًا يتألم لمآسى الناس كل الناس. بلا تفرقة ولا تمييز ولا تحفظ.

وكان أبرز ما تسالمنا عليه هو:

أن الأديان الإلهيَّة، بريئة كل البراءة من الحركات والجماعات المسلَّحة التى تُسمَّى حديثًا بـ «الإرهاب»، كائنًا ما كان دينها أو عقيدتها أو فكرها، أو ضحاياها، أو الأرض التى تُمارِس عليها جرائمَها المنكرة.. فهؤلاء قتلة وسفاكون للدِّماء، ومعتدون على الله ورسالاته.. وأن على المسؤولين شرقًا وغربًا أن يقوموا بواجبهم فى تعقُّب هؤلاء المعتدين والتصدى لهم بكل قوة، وحماية أرواح الناس وعقائدهم ودور عباداتهم من جرائمهم.

كما تسالمنا على أن الأديان قد أجمعت على تحريم الدِّماء، وأن الله حرَّم قتل النفس فى جميع رسالاته الإلهية: صرخ بذلك موسى عليه السلام فى الوصايا العشر على جبل حوريب بسيناء وقال: «لاَ تَقْتُلْ! لاَ تَزْنِ! لاَ تَسْرِقْ!» ( )، ثم صدع به عيسى عليه السلام من فوق جبل من جبال الجليل، بالقرب من كفر ناحوم بفلسطين، «فى كنزه الأخلاقى النفيس» الذى يُعرف بموعظة الجبل، وقد أكَّدَ السيد المسيح ما جاء به موسى، وزاد عليه فى قوله: «سَمِعْتُمْ أَنَّهُ قِيلَ لِلْقُدَمَاءِ: لاَ تَقْتُلْ، فإنَّ مَنْ يَقتل يَسْتَوْجِبَ حُكْم القضاء، أما أنا فأقول لكم: من غضب على أخيه استوجب حكم القضاء (...) ومن قال له: يا جاهل استوجب نار جهنم»( )، وجاء محمد ﷺ وأعلن للناس من فوق جبل عرفات فى آخر خطبة له تُسمَّى خطبة الوداع، أعلن ما أعلنه أخواه من قبله، وزاد أيضًا وقال: «أيُّها النَّاسُ، إنِّى والله ما أدرى لعلِّى لا ألقاكم بعدَ يومى هذا، بمكانى هذا، فرحم الله امرءًا سمع مقالتى اليوم فوعاها (...) أيُّها النَّاسُ، أن دماءَكم وأموالَكم وأعراضكم عليْكُم حرامٌ، كحُرمةِ يومِكم هذا، فى بلدِكم هذا، وستلقَونَ ربَّكم، فيسألُكم عن أعمالِكم (...) أَلاَ لِيُبَلِّغ الشَّاهِدُ مِنْكُمُ الغَائِبَ». وكان يقول من فرَّق بين والدة وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة.. ومَنْ أشارَ إلى أخيهِ بحديدَةٍ، فإنَّ الملائِكَةَ تلْعَنُهُ، وإنْ كانَ أخاهُ لأبيهِ وأُمِّهِ.

هذا إلى عشرات الآيات القرآنية التى تحرم قتل النفس، وتعلن أن من قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا.

وتلاحظون حضراتكم وحدة الخطاب الإلهي ووحدة معناه، بل وحدة المنصَّات التى خطب عليها هؤلاء الأنبياء الكرام، وهي: جبل الطور بسيناء فى مصر، وجبل ..من الجبال فى فلسطين، وجبل عرفات بمكَّة فى جزيرة العرب

ومن هذا يتضح جليًّا أنه ليس صحيحًا ما يُقال من أن الأديان هى بريد الحروب وسببها الرئيسى، وأن التاريخ شاهد على ذلك، مِمَّا برَّر ثورة الحضارة المعاصرة على الدِّين وأخلاقِه، وإبعاده عن التدخل فى شؤون المجتمعات، بعدما سرت هذه الفرية - سريان النار فى الهشيم- فى وعى الناس والشباب، وبخاصةٍ فى الغرب،

وكانت من وراء انتشار دعوات الإلحاد والفلسفات الماديَّة ومذاهب الفوضى والعدميَّة والحرية بلا سقف، وإحلال العلم التجريبى محل «الدِّين»، ورُغم ذلك، وبعد مرور أكثر من ثلاثة قرون على الثورة على الله وعلى الأديان الإلهية جاءت المحصلة كارثية بكل المقاييس، تمثَّلت فى مأساوية الإنسان المعاصر التى لا ينكرها إلَّا مكابر.

والحق الذى يجب أن ندفع به هذه الفرية هو أن أوَّل أسباب أزمة العالَم المُعاصر اليوم إنما يعود إلى غياب الضمير الإنسانى وغياب الأخلاق الدِّينيَّة، وتَحكُّم النزعات والشهوات الماديَّة والإلحاديَّة والفلسفات العقيمة البائسة التى ألَّهت الإنسان، وسخرت من الله، ومن المؤمنين به.. واستهزأت بالقيم العليا المتسامية التى هى الضَّابط الأوحد لكبح جماح الإنسان وترويض «الذئب» المستكن بين جوانحه.

أمَّا الحروب التى انطلقت باسم «الأديان»، وقتلت الناس تحت لافتاتها فإنَّ الأديان لا تُسأل عنها، وإنما يُسأل عنها هذا النوع من السياسات الطائشة التى دأبت على استغلال بعض رجال الأديان وتوريطهم فى أغراضٍ لا يعرفها الدِّين ولا يحترمها، ونحن نقر بأن هناك من رجال الأديان مَن تأوَّل نصوصها المقدَّسة تأويلًا فاسدًا، لكنا لا نقر أبدًا بأن قراءة الدين قراءة أمينة نظيفة لا تسمح أبدًا لهؤلاء الضالين المضلين بالانتساب الصحيح إلى أى دين إلهى، ولا تُبرّر لهم خيانة أمانتهم فى تبليغه للناس كما أنزله الله.

على أن هذا الانحراف الموظَّف فى فهم النصوص ليس قاصرًا على نصوص الأديان واستغلالها فى العدوان على الناس، بل كثيرًا ما يحدث مثله فى أسواق السياسة، حين تُقرأ نصوص المواثيق الدولية المتكفلة بحفظ السلام العالمى قراءة خاصَّة تبرر شنَّ الحروب على دول آمنة، وتدميرها على رؤوس شعوبها، ولا مانع بعد أن تقضى هذه السياسات شهواتها العدوانية البشعة.. لا مانع من الاعتذار للثكالى واليتامى والأرامل بأنها أخطأت الحساب والتقدير. والأمثلة على ذلك واضحة وضوح الشمس فى رابعة النهار.

من أجل ذلك نادينا فى هذه الوثيقة «بوقف استخدام الأديان، والمذاهب، فى تأجيج الكراهية والعنف والتعصُّب الأعمى، والكفِّ عن استخدام اسم الله لتبرير أعمال القتل والتشريد والإرهاب والبطش، وذكَّرنا العالَم كله بأن الله لم يخلق الناس ليُقْتَلوا أو يُعذَّبوا أو يُضيَّق عليهم فى حياتهم ومعاشهم... والله –عز وجل- فى غنى عمَّن يدعو إليه بإزهاق الأرواح أو يُرهب الآخرين باسمه».

الحفـلُ الكـريم!

إننى على يقين أن هذه المبادرات الضرورية والتحركات الطيبة نحو تحقيق الأخوة الإنسانية فى منطقتنا العربية سوف تؤدى ثمارها، وقد بدأت، بحمد الله، بقوة فى مصر المحروسة حيث افتتح قبل عدة أيام أول وأكبر مسجد وكنيسة متجاورين، فى العاصمة الإدارية الجديدة، وفى خطوة تاريخية، نحو تعزيز التسامح وترسيخ الأخوة بين الأديان، وبمبادرة رائدة من السيد الرئيس عبد الفتاح السيسى، رئيس جمهورية مصر العربية.

وتبقى لى كلمة أوجهها لإخوتى المسلمين فى الشرق، وهى أن تستمروا فى احتضان إخوتكم من المواطنين المسيحيين فى كل مكان؛ فهم شركاؤنا فى الوطن، وإخوتنا الذين يُذكِّرنا قرآننا الكريم بأنَّهم أقرب الناس مودَّة إلينا، ويعلِّل القرآن هذه المودة بقوله تعالى: ﴿ ذلك بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢]، فالمسيحيون –كل المسيحيين- قلوبهم مملوءة خيرًا ورأفة ورحمة، والله تعالى هو الذى جعل فى قلوبهم هذه الخصال الحميدة.. وهذا ما يسجله القرآن فى قوله تعالى فى سورة الحديد: ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

ويجب علينا نحن المسلمين ألا ننسى أن المسيحيَّةَ احتضنت الإسلام، حين كان دينا وليدا، وحمته من طغيان الوثنية والشِّرك، التى كانت تتطلع إلى اغتياله فى مهده، وذلك حين أمر النبى ﷺ المستضعفين من أصحابه، وهم أكثر تابعيه حين اشتد عليهم أذى قريش وقال لهم: «اذهبوا إلى الحبشة فإن بها ملكًا لا يُظلم أحد فى جواره» وقد استقبلهم هذا الملك المسيحى فى دولته المسيحية، وأكرمهم وحماهم من قريش، ثم أعادهم إلى المدينة المنورة بعد أن اشتد عود الإسلام واستوى على سوقه.

وكلمة أخرى لإخوتى المسيحيِّين فى الشرق: أنتم جزء من هذه الأُمَّة، وأنتم مواطنون. ولستم أقليَّة، وأرجوكم أن تتخلصوا من ثقافة مصطلح الأقليَّة الكريه، فأنتم مواطنون كاملو الحقوق والواجبات، واعلموا أن وحدتنا هى الصخرة الوحيدة التى تتحطم عليها المؤامرات التى لا تفرق بين مسيحى ومسلم إذ جد الجد وحان قطف الثمار.

وكلمتى للمواطنين المسلمين فى الغرب أن اندمجوا فى مجتمعاتكم اندماجًا إيجابيًّا، تحافظون فيها على هويتكم الدِّينيَّة كما تحافظون على احترام قوانين هذه المجتمعات، واعلموا أن أمن هذه المجتمعات مسؤوليَّة شرعيَّة، وأمانة دينيَّة فى رقابكم تُسألون عنها أمام الله تعالى، وإن صدر من القوانين ما يفرض عليكم مخالفة شريعتكم فالجأوا إلى الطُّرق القانونيَّة، فإنها كفيلة بردِّ الحقوقِ إليكم وحماية حريتكم.

كما أقول لشباب العالَم فى الغرب والشرق: أن المستقبل يبتسم لكم، وعليكم أن تتسلحوا بالأخلاق وبالعلم والمعرفة، وعليكم أن تجعلوا من هذه الوثيقة دستور مبادئ لحياتكم، اجعلوا منها ضمانًا لمستقبل خال من الصراع والآلام، اجعلوا منها ميثاقًا بانيًا للخير هادمًا للشر، اجعلوا منها نهاية للكراهية.. عَلِّمُوا أبناءكم هذه الوثيقة فهى امتداد لوثيقة المدينة المنورة، ولموعظة الجبل، وهى حارسة للمشتركات الإنسانيَّة والمبادئ الأخلاقيَّة.. وسوف أعمل مع أخى قداسة البابا، فيما تبقَّى لنا من العُمر، ومع كل الرموز الدِّينيَّة من أجلِ حماية المجتمعات واستقرارها، وهنا يجب أن أُشيد بملتقى تحالف الأديان لأمن المجتمعات الذى انعقد هنا فى أبوظبى نوفمبر الماضى وحظى بدعمٍ من الأزهر الشَّريف ومن الفاتيكان، وحضره عددٍ من قادة الأديان للقيام بمسؤوليتهم من أجل حماية كرامة الطفل.

.....

وختامًا: أتوجَّهُ بالشُّكْرِ الجزيل للأخ الكريم صاحب السمو الشيخ محمد بن زايد على رعايتِه لهذه المبادرةِ التاريخيَّةِ، واحتضانه «وثيقة الأخوَّة الإنسانيَّة» التى نرجو أن يكونَ لها ما بعدها من إقرارِ السَّلام بين الشعوب، وإيقاظ مشاعر المحبَّة والاحتِرام المتبادَل بين الغربِ والشَّرق وبين الشَّمالِ والجنوب.

كما أُقدم الشُّكر لسمو الشيخ عبد الله بن زايد ولكل الشباب المتميز الذى سهر على ترتيب هذا اللِّقاء وتنظيمه وإخراجه بهذه الصورة المشرفة.

وانطلاقًا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾، أُسجِّلُ شُكرى لجندين مجهولين كانا وراء إعداد «وثيقة الأخوَّة الإنسانيَّة» من بدايتها حتى ظهورها اليوم فى هذا الحدث العالَمى، وهما: ابنـاى العزيزان القاضي/ محمد عبد السلام – المستشار السابق لشيخ الأزهر، والأب يوأنس لحظى جيد – السكرتير الشخصى لقداسة البابا فرنسيس، فلهما ولكلِّ مَن أسْـهَم فى إنجـاح هذا اللقاء خالص الشُّكر والتقـدير والاحـترام.

أشكركم على حُسْنِ استماعكم.

وسَلامُ اللهِ عَلَـيْكُم ورَحْمَـتُه وبَرَكَاتُه؛